بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نَزَّل كلامه القديم على عبده فألهمه التأويل والتفسير، فكان قرآناً عربياً تحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله إنّه كان عليماً قديرا، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بمثله فقال: ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾، والصلاة والسلام على من أُرْسِل للعالمين بشيراً نذيرا، ومعلماً لكتاب الله الحكيم وسراجاً منيرا، وعلى آله الذين حفظوا آياته فأذهب الله عنهم الرجس بنصه وطهرهم تطهيرا، وعلى أصحابه الذين تفهموا مراده فباعوا به الدنيا والنبيين والقناطيرا، وعلى أتباعه الذين انتهجوا نهجهم فتدبّروا آياته تدبيرا، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون قليلاً كان أم كثيرا.

أما بعد:

فإن علم التفسير أشرف العلوم أبداً؛ لأنّه علم يختص بكتاب الله العزيز أكرم به مدداً، فبه يفهم القرآن وتدرك معانيه، وبه يكشف عن مقاصده ومراميه، هذه المقاصد لا تعرف إلاّ بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على المنسوخ منه والناسخ، ليتبيّن لنا الحق كالنور الراسخ، وإدراك الخاص منه والعام، وإظهار حكمهما للأنام، والاستنباط لمعاني دلالات الألفاظ، ومعرفة وجوه القراءات من الحفاظ، ليكون نوراً يُهْتدى به من الضلالة، ويَفْهَم به مرادَ ربِّه ليُنْقِذَ نفسَه من الجهالة، فَيُحْكَمُ بالفلاح لمن تفهم معانيه واتبعه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه.

وها نحن نضع بين يديك كتاب «الكشاف»، ليكون لصدرك الدواء الشاف، للإمام المفسّر الجليل، اللغوي الأديب الخليل، أبي القاسم الزمخشري محمودْ، عفا الله عنه لاعتزاله المعهودْ، وغفر له زلته وأكرمه بمقام محمودْ، فقد أوْلَى مصنَّفَه عناية كبيرة، وأحسن انتقاء أحاديثه الغزيرة، فألفه بشكل وسط لا بالطول المملّ، ولا بالمختصر المخلّ، رحمه الله تعالى.

وأخيراً أسأل اللَّهَ أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، ونوراً لقبورنا ومصدراً كريماً لعيشنا وسرورنا، إنّه قريب مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين.

بيروت في 17 جمادى الأولى 1423

الموافق 26 تموز 2002

كتبه النليل إلى مولاه الجليل

خليل مامون شيحا

ترجمة الإمام الزمخشري

اسمـــه:

محمود بن عمر بن محمد بن عمر.

كنيتـــه:

أبو القاسم.

لقبـــه:

جار الله.

ولقّب بهذا اللقب؛ لأنّه لما سافر إلى مكة ـ حرسها الله تعالى ـ وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه.

نسبتـه:

الخوارزمي الزمخشري.

وخوارزم: بلدة في العراق.

وزمخشر: قرية من قرى خوارزم القريبة منها، وقيل: إنّ العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها، فصارت من جملة محالّها.

مولـده:

ولد رحمه الله تعالى وعفا عنه بزمخشر يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربع مئة من الهجرة النبوية الشريفة.

نشأته ورحلاته:

نشأ الإمام الزمخشري محباً للعلم منذ صغره، فما أن وصل إلى سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم وهنالك قطعت رجله، فجعل له رجلاً من خشب يستعين بها في المشي، ومن هناك كانت بدايته، ففتح الله تعالى عليه من العلم ما لم يفتح على غيره من أهل بلدته في عصره، فكان أعلم الفضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً واطّلاعاً، وبه ختم فضلاؤهم حتى أصبح يضرب به المثل في علم الأدب والنحو واللغة، وقد ساعده على ذلك التوفيق أولاً، ثم إقباله على العلم ثانياً، وبدأ يحط رحله من بلد إلى آخر، فورد العراق فلما دخل بغداد اجتمع بالفقيه الحنفي الدامغاني[1]، فسأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أنّني في صباي أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله، وانفلت من يدي، فأدركته وقد دخل في خرق، فجذبته فانقطعت رجله في الخيط، فتألمت أمي لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم، فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عليّ عملاً أوجب قطعها.

وكذلك دخل خراسان، ثم خرج منها إلى الحج، فلما نزل مكة شرفها الله تعالى وجد بها الشريف السيد الفاضل الكامل أبا الحسن علي بن عيسىٰ الحسني فعرف قدره ورفع أمره، وأكثر الاستفادة منه، وأخذ عن الزمخشري وأخذ الزمخشري عنه ونشطه لتصنيف ما صنف، وقال الشريف مادحاً للزمخشري:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي ... تبوّأها داراً فداءٌ زمخشرا

وأحر بأن تزهى زمخشر بامرئٍ ... إذا عد في أسد الشَّرى زمخ الشَّرى

ثم انتقل مقيماً برهة في الحجاز، حتى هبت على كلامه رياح البادية، وورد مناهل العرب العاربة، ثم انكفأ راجعاً إلى خوارزم، وأكثر من التصانيف في التفسير وغريب الحديث والنحو وغير ذلك، حتى بدأت تشد إليه الرحال في فنونه، ثم قوي عزمه على الرحلة عنها، وعوده إلى الحجاز، فقيل له: قد زجيت أكثر عمرك هناك فما الموجب؟ فقال: القلب الذي لا أجده ثم أجده هاهنا.

وكان كلما دخل بلداً اجتمع عليه أهل هذا البلد وتلمذوا له، واستفادوا منه ونقلوا عنه، وبعد أن جاب الدنيا ورحل من هنا وهناك عاد من مكة إلى وطنه الحبيب خوارزم وبقي فيها يصنِّف ويلقى بها الأكابر والأفاضل، ويتلمذ فيها إلى أن توفاه الله تعالى.

اعتقاده:

لقد أشارت كل التراجم بدون استثناء أنّ الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، متشدداً بآرائه، حتى نقل عنه أنّه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه

---

(1) هو الإمام أحمد بن علي بن محمد أبو الحسين الدامغاني المتوفى سنة 540هـ.

في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب.

والظاهر أنّه كان يتفاخر ويتباهى باعتزاله، كيف لا، وقد وصفه أحدهم بأنّه كبير المعتزلة، المتحقق به. أعاننا الله تعالى وإياكم من سوء الاعتقاد.

وسنورد كلاماً خاصاً عن أثر اعتقاده في تفسيره الكشاف وكيف أنّه فسّر القرآن الكريم بالطريقة التي تنصر مذهبه الباطل.

مذهبه:

لم تشر التراجم إلى مذهب الزمخشري الفقهي، باستثناء كتابين، أحدهما: كتاب: «العقد الثمين» 7/137، للإمام تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي المتوفى سنة 832هـ حيث يقول معنوناً: محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الحنفي أبو القاسم المعروف بالزمخشري والثاني: كتاب: «المغني» ص 123 للإمام محمد طاهر بن علي الهندي المتوفى سنة 986هـ حيث يقول: الزمخشري منه: محمود بن الخوارزمي الحنفي مذهباً صاحب تصانيف عجيبة. ولعل الذي يؤكد ما ذهب إليهما الإمامين اجتماعه بالفقيه الحنفي الدامغاني رحمه الله تعالى في بغداد.

ويؤكد الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «طبقات المفسرين» 1/474 انتماءه للمذهب الحنفي قائلاً: وهو معتدل ـ في المسائل الفقهية ـ لا يتعصب لمذهبه الحنفي والله أعلم بالصواب.

شيوخه:

لم تذكر لنا المصادر أسماء شيوخه الذين لقيهم وتلقى العلم عليهم، ولكن اكتفوا بذكر أسماء ستة من شيوخه وهم:

1 ـ أبو الخطاب نصر بن البطرة.
2 ـ أبو الحسن علي بن المظفر النيسابوري.
3 ـ أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني.
4 ـ أبو الحسن علي بن عيسىٰ بن حمزة.
5 ـ أبو سعد الشقاني.
6 ـ أبو منصور الحارثي. وغيرهم كثير.

تلاميذه:

ظهر للزمخشري جماعة من التلامذة منهم:

1 ـ أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي بطبرستان.
2 ـ وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بأبيورد.
3 ـ وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر.
4 ـ وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشي بسمرقند.
5 ـ وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم.
6 ـ وأبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلفي.
7 ـ وزينب بنت عبد الرحمٰن الشَّعْري وجماعة سواهم.

والظاهر أنّ تلاميذه كثر؛ لأنّه جاء في المصادر ما نصه: وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه وتلمذوا له واستفادوا منه.

مصنّفاته:

ألّف الإمام الزمخشري كتباً كثيرة وصلت إلى (49) كتاباً تقريباً، منها في علوم التفسير والحديث واللغة والنحو وعلم البيان والمواعظ والفقه والتاريخ وغيرها. وسنعرض لما وصلتنا من أسماء مؤلفاته حسب ترتيبها الألف بائي وهي كالتالي:

حرف الألف

1 ـ الأجناس. في اللغة.
2 ـ الأسماء. في اللغة.
3 ـ الأصل.
4 ـ الأمالي. في النحو.
5 ـ أساس البلاغة. في اللغة.
6 ـ أطواق الذهب. في المواعظ.
7 ـ أعجب العجب في شرح لامية العرب.

حرف التاء

8 ـ تسلية الضرير.

حرف الجيم

9 ـ الجبال والأمكنة.
10 ـ جواهر اللغة.

حرف الحاء

11 ـ حاشية على المفصل.

حرف الدال

12 ـ ديوان التمثيل.
13 ـ ديوان خطب.
14 ـ ديوان رسائل.
15 ـ ديوان شعر.

حرف الراء

16 ـ الرائض في الفرائض.
17 ـ الرسالة الناصحة.

18 ـ ربيع الأبرار. في الأدب والمحاضرات.

19 ـ رسالة الأسرار.

20 ـ رسالة المسامة.

21 ـ روح (رؤوس) المسائل. في الفقه.

حرف السين

22 ـ سوائر الأمثال.

حرف الشين

23 ـ شافي العيّ من كلام الشافعي.

24 ـ شرح كتاب سيبويه.

25 ـ شرح مقاماته.

26 ـ شقائق النعمان. في حقائق النعمان في مناقب الإمام أبي حنيفة.

حرف الصاد

27 ـ صميم العربية.

حرف الضاد

28 ـ ضالة الناشد.

حرف العين

29 ـ عقل الكل.

حرف الفاء

30 ـ الفائق في غريب الحديث.

حرف القاف

31 ـ القسطاس في العروض.

حرف الكاف

32 ـ الكشاف. في التفسير، وهو كتابنا الذي بين أيدينا، وقد أفردنا فصلاً خاصاً للكلام عليه آخر هذه المقدمة.

33 ـ الكلم النوابغ. في المواعظ.

حرف الميم

34 ـ المحاجاة ومتمم سهام أسباب الحاجات في الأحاجي والألغاز.

35 ـ المستقصى في الأمثال.

36 ـ المفرد والمؤلف في النحو.

37 ـ المفرد والمركب في اللغة.

38 ـ المفصل في النحو.

39 ـ المنهاج في الأصول.

40 ـ متشابه أسماء الرواة.

41 ـ مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة.

42 ـ معجم الحدود.

43 ـ مقامات في المواعظ.

44 ـ مقدمة الأدب في اللغة.

حرف النون

45 ـ النموذج في النحو.

46 ـ نزهة المستانس.

47 ـ نصائح الصغار.

48 ـ نصائح الكبار.

49 ـ نكت الأعراب في غريب الإعراب.

أشعاره:

إنّ للزمخشري رسائل مسجوعة، ومقامات مصنوعة، محلاّة بالبديع، وفيها أثر التعمل؛ جرياً مع العصر الأدبي الذي كان يعيش فيه.

وله أيضاً ديوان شعر تشيع فيه عبارة الفقهاء فمن قوله:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مدامة ساق

وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدوكاء والعشاق

وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراق

أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذلك لحاق

ومن شعره أيضاً هذه الأبيات:

ألا قل لسُعدَى أما لنا فيك من وطن ... وما تطلبين النُّجْلَ من أعين البقرْ

فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت ... عيونهمُ والله يجزي من اقتصرْ

مليح ولكن عنده كل جفوه ... ولم أر في الدنيا صفاء بلا كدرْ

ولم أر إذ غازلته قرب روضة ... إلى جنب حوض فيه للماء منحدرْ

فقلت له جئني بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعرْ

فقال انتظرني رجع طرفي أجيء به ... فقلت له هيهات ما ليَ منتظرْ

فقال ولا ورد سوى الخدُّ حاضر ... فقلت له: إني قنعت بما حضرْ

ومن شعره يرثي شيخه أبا نصر منصور:

وقائلة ما هذه الدرر التي ... تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت هو الدّر الذي كان قد حشا ... أبو مضر أذني تساقطن من عيني

ومن شعره أيضاً على ما يقال:

هو النفس الصعاد من كبد حرّى ... إلى أن أرى أم القرى مرة أخرى

وما عذر مطروح بمكة رحله على غير بؤس لا يجوع ولا يعرى
يسافر عنها يبتغي بدلاً بها وربك لا عذرى وربك لا عذرى

وغير هذا كثير مكتفين بهذا القدر خشية الإطالة والملل.

وفاتـــه:

توفي الزمخشري ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة النبوية الشريفة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه آمين.

وقيل: إنّه أوصى بعد موته أن تكتب على قبره هذه الأبيات:

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الألْيَلِ
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النّحَلِ
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأوّلِ

ورثاه بعضهم قائلاً:

فأرض مكة تذري الدمع مقلتها حزناً لفرقة جار الله محمود

وجرجانية: بضم الجيم الأولى وفتح الثانية وسكون الراء وكسر النون وتشديد الياء، وهي قصبة خوارزم وتقع على شاطئ جيحون.

التعريف بكتاب الكشاف ومنهج الزمخشري فيه

(أ) توثيق نسبة الكشاف للزمخشري:

أجمع الذين ترجموا للزمخشري على نسبة هذا التفسير المسمى «بالكشاف» له، وسنذكر بعض أهم المصادر التي نصت على نسبة الكتاب له، وفق التسلسل الزمني لوفيات أصحابها:

1 ـ ذكره الإمام الزمخشري نفسه مادحاً له:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ويكفي قوله هذا في توثيق نسبة الكتاب له.

2 ـ وذكره الإمام السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة 562هـ) في «الأنساب» 3/163 فقال: لقي الأفاضل والكبار وصنّف تصانيف في التفسير. وهو أقدم من ترجم له وعاصره، فقد قال: ورد مرو في زماني ولم يتفق لي رؤيته والاقتباس منه. ولم يصرح بذكر اسم الكتاب.

3 ـ وذكره الإمام ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي (المتوفى سنة 597هـ) في «المنتظم» 18/37، فقال: وصنّف التفسير الكبير، ولم ينص على اسمه أيضاً.

4 ـ وذكره الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القِفْطي (المتوفى سنة 624هـ) في «إنباه الرواة» 3/265، فقال: صنّف التصانيف في التفسير وغريب الحديث. ولم يصرح باسمه كذلك.

5 ـ وذكره الإمام ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (المتوفى سنة 681هـ) في «وفيات الأعيان» 5/168، فقال في بداية ترجمته مَعْنْوناً: الزمخشري صاحب الكشاف.

6 ـ وذكره الإمام الذهبي، شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان (المتوفى سنة 748هـ) في «سير أعلام النبلاء» 20/152، فقال: أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الزمخشري... صاحب الكشاف.

7 ـ وذكره الإمام ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (المتوفى سنة 774هـ) في «البداية والنهاية» 12/219، فقال: صاحب الكشاف في التفسير.

8 ـ وذكره الإمام ابن خلدون، عبد الرحمٰن (المتوفى سنة 808هـ) في «المقدمة» ص 491، فقال: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري.

9 ـ وذكره الإمام ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (المتوفى سنة 852هـ) في «لسان الميزان» 6/4، فقال: محمود بن عمر الزمخشري المفسّر... يسمى كتابه الكشاف تعظيماً له.

10 ـ وذكره حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (المتوفى سنة 1067هـ) في «كشف الظنون» ص 1475، فقال: الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام العلامة أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري.

11 ـ وذكره ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (المتوفى سنة 1089هـ) في «شذرات الذهب» 4/118، فقال: أبو القاسم الزمخشري... صاحب الكشاف.

12 ـ وذكره البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين (المتوفى سنة 1339هـ) في «هدية العارفين» 2/402، فقال:

13 ـ وذكره بروكلمان (المتوفى سنة 1376هـ) في «تاريخ آداب اللغة العربية» 5/215، ونص على وجود مخطوطاته في مكتبات العالم، وذكر المطبوع منها، وما لم يطبع.

14 ـ وذكره الزركلي، خير الدين (المتوفى سنة 1396هـ) في «الأعلام» 7/178، فقال: أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن.

15 ـ وذكره الدكتور الذهبي، محمد حسين (المتوفى سنة 1397هـ) في «التفسير والمفسرون» 1/429، واستفاض في الكلام عليه.

16 ـ وذكره كحّالة، عمر رضا (معاصر) في «معجم المؤلفين» 12/186، فقال: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المفسر... من تصانيفه الكثيرة: الكشاف عن حقائق التنزيل.

هذه هي من أهم المصادر التي ترجمت للزمخشري، ونكرت تفسيره الكشاف، ولا يشك أحد من المترجمين له نسبة هذا الكتاب للإمام الزمخشري.

(ب) سبب تأليفه للكشاف:

ينكر الإمام الزمخشري في مقدمة كتابه السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه فقال: ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد.

والذي حداني إلى الاستعفاء ـ على علمي أنّهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة؛ لأن الخوض فيه كفرض العين ـ ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر همهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على عِلمَي البيان والمعاني، فأمليت عليهم مسألة في الفواتح، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنّما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتمونه، ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطش الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه حرّاصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي، وحرك الساكن من نشاطي.

فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله، أبي الحسن بن حمزة بن وهاس ـ أدام الله مجده ـ وهو النكتة والشامة في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشىً، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنّه كان يحدث نفسه في مدة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافي وطي المهامه، والإفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيّت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة، وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم.

أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً على الصراط يسعى بين يدي ويميني، ونعم المسؤول ا هـ

وكان الفراغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثاني من ربيع الآخر في عام ثمان وعشرين وخمسمائة.

(ج) قيمة الكشاف العلمية:

إن كتاب الكشاف من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من ناحية البلاغة، رغم نزعته الاعتزالية، وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه.

وقيمة هذا الكتاب تبرز من خلال علمين مختصين بالقرآن الكريم وهما: علم المعاني وعلم البيان، وبهما برع الزمخشري حتى أصبح سلطان هذا الفن، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب.

ولقد أحسن الزمخشري حين استخرج من القرآن الكريم محاسن النكت، ولطائف المعاني التي يستعمل فيها الفكر؛ لإظهار جمال النظم القرآني، ورونقة الإعجاز منه، من خلال أسرار البلاغة وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن الكريم وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النوع العلمي والأدبي على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء، وعلق به قلوب المفسّرين.

ويمتاز الكشاف بأمور منها:

1 ـ خلوه من الحشو والتطويل.

2 ـ سلامته من القصص والإسرائيليات.

3 ـ اعتماده في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم.

4 ـ عنايته بعلمي المعاني والبيان والنكات البلاغية تحقيقاً لوجوه الإعجاز.

5 ـ سلوكه فيما يقصد إيضاحه طرق السؤال والجواب كثيراً، ويعنون السؤال بكلمة «فإن قلت» بفتح التاء، ويعنون الجواب بكلمة «قلت» بضم التاء.

وهذا مما زاد في تفسير الكشاف قيمة يجعل النفوس تميل إليه، والطباع راغبة في قراءته وتناوله.

وهكذا نجد أن الأئمة الذين تكلموا على الإمام الزمخشري وعلى تفسيره من الناحية الاعتزالية ـ كما سيأتي في فصل خاص ـ قد أثنوا على الكشاف من الناحية العلمية الأدبية والبلاغية واللغوية وغيرهم، وإليك بعض مقالاتهم:

1 ـ مقالة الإمام الهروي

ويشهد الإمام الهروي أحد الذين تتبعوا زلات الزمخشري بأن كتاب الكشاف: كتاب علي القدر رفيع الشأن، لم ير مثله في تصانيف الأوّلين، ولم يرد شبيهه في تأليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، وأجمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين، ما قصر في قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده، وكل كتاب بعده

في التفسير.

2 ـ مقالة الإمام ابن خلدون

وهذا هو ابن خلدون يشهد للكشاف أنّه أفضل الكتب في التفسير من حيث معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى فيقول: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق. ثم يقول: فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان.

3 ـ مقالة الإمام التاج السبكي

وكذلك نجد أن الإمام تاج الدين السبكي يشهد أيضاً ما للكشاف من الفوائد وما للزمخشري من طول باع في هذا العلم فيقول: واعلم أن «الكشاف» كتاب عظيم في بابه أي: في بابه العلمي الأدبي، ومصنفه إمام في فنه.

4 ـ مقالة الإمام ابن المنير المالكي

وهذا الإمام رغم شدة وووته على الزمخشري ورده العنيف عليه ـ كما سيأتي ـ لا ينسى ما للزمخشري من أثر طيب في التفسير، فكثيراً ما يبدي إعجابه به؛ لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة، وكثيراً ما يعترف بتقدير كبير بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية.

فتارة نراه يقول منصفاً بعد تعقبه تفسيره: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز، والعمق في آثار معادنه، وإبراز محاسنه.

وتارة أخرى نجده يقول أيضاً باعتدال: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنّه كان ملياً بالحذاقة في علم البيان.

هذه بعض شهادات العلماء الذين ردّوا على الزمخشري اعتزاله وشنّوا عليه الحرب، وحذروا من كشافه، نجدهم يشهدوا أن للكشاف قيمة غنية من ناحية البلاغة، والإعجاز، واللغة، والبيان، بإنصاف دون انتقاص من قيمته العلمية شيئ

(د) انتصار الزمخشري لعقيدته الاعتزالية في الكشاف:

لقد نحى الزمخشري في تفسيره منحى الاعتزال، وقد مرّ سابقاً أنّه متشدد بآرائه ومتعصب بأفكاره، وقد جعل من هذا التفسير طريقاً سهلاً لنصرة مذهبه الفاسد، ولإظهار آرائه وأفكاره الباطلة، فنرى أنه يؤيد مذهبه الاعتزالي بكل ما أوتي من قوة الحجة، وسلطان الدليل، وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلى أن يتأول ما كان منها معارضاً لعقيدته، فمن أفكاره الزائغة:

1 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في أصحاب الكبار:

فمثلاً يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾[1].

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومن ثَم روى عن ابن عباس ما روى: من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمو منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلاً، وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»، وفيه: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق وآخر رضي بالمغرب لأشرك في دمه»، وفيه: «إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه»، وفيه: «من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله».

والعجب من قوم يقرؤون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطمعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مُناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2]... فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله: ومن يقتل أي قاتل كان من مسلم، أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادّعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.

2 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في الحسن والقبح العقليين

ولما كان الزمخشري يقول بمبدأ المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذا النص المنافي لمذهبه، وهو قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾[3] فنراه في هذه الآية يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً

(1) سورة النساء، الآية: 93.
(2) سورة محمد، الآية: 24.
(3) سورة الإسراء، الآية: 15.

ينبهنا علىّ النظر في أدلة العقل.

3 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في السحر

نجد من خلال تفسيره لسورة الفلق انتصاره لرأي المعتزلة النافين للسحر وللسحرة حيث يستهزئ ويَسْخر بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر قائلاً:

(النفاثات) النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها ويرقين، والنفث: النفخ مع الريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثَم إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل قد يفعل ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهنّ وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به.

فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهن؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من عملهنّ الذي هو صنعه السحر ومن إثمهن في ذلك.

والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿إن كيدكن عظيم﴾[1] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنّ الرجال بتعرضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهنّ، كأنهنّ يسحرنهم بذلك.

4 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال

لقد تشدد الزمخشري في مسألة حرية الإرادة وخلق الأفعال، رغم وجود آيات صريحة تصادم مقولته وهي أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فتفادى هذا التصادم لتعصبه لمذهبه الباطل باعتقاده باللطف الإلٰهي الذي يسهل على الإنسان عمل الخير، وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

فنراه يفسّر قوله تعالى: ﴿ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾[2] فيقول: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ وأرشدتنا لدينك أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا.

وهكذا نجده قد خرج من ورطته الكبرى فساعده على هذا المعنى ـ اللطف الإلٰهي ـ الذي تمسك به هو والمعتزلة، ونفعهم في كثير من المواضع.

5 ـ انتصاره لرأي المعتزلة في عدم رؤية الله تعالى

ناهيك عن تفسيره للنصوص بما يوافق عقيدته الاعتزالية، فهو يتذرع بالمعاني اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالي، فنراه كغيره من المعتزلة إذا مرّ بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجوداً في اللغة.

فمثلاً نراه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾[3] يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ﴿ناظرة﴾؛ لأنّه لا يتفق مع مذهبه القائل بعدم رؤية الله تعالى فنراه يثبت له معنى آخر وهو التوقع والرجاء فيقول:

﴿إلى ربّها ناظرة﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إلى ربك يومئذ المستقرّ﴾[4]، ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾[5]، ﴿إلى الله تصير الأمور﴾[6]، ﴿إلى الله المصير﴾[7]، ﴿وإليه ترجعون﴾[8]، ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾[9] كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفي محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم؛ لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء.

(هـ) موقف الزمخشري من الفقهيات:

ونجد أن الزمخشري لا يتوسع في المسائل الفقهية أبداً، بل على العكس نراه أنّه يتعرض لها إلى حد ما دون الميول إلى مذهبه الحنفي، فهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الفقهي على عكس مذهبه الاعتقادي فإنّه متعصب جداً جداً.

(و) موقف الزمخشري من الإسرائيليات:

إنّ الناظر في كتب التخريجات لأحاديث الكشاف، يجد أن الزمخشري مثل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو

(1) سورة يوسف، الآية: 28.
(2) سورة آل عمران، الآية: 8.
(3) سورة القيامة، الآيتان: 22 ـ 23.
(4) سورة القيامة، الآية: 12.
(5) سورة القيامة، الآية: 30.
(6) سورة الشورى، الآية: 53.
(7) سورة آل عمران، الآية: 28.
(8) سورة البقرة، الآية: 245.
(9) سورة الشورى، الآية: 10.

يتبع خطة للكشف عن هذه الروايات، بأن يصدر الرواية بلفظ «روي»، المشعر بضعف الرواية، وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا في الغالب يكون عند نكره للروايات التي لا يلزم من التصديق بها مساس الدين، وإما أن ينبّه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا في الغالب يكون عند الروايات التي لها مساس بالدين وتعلق به.

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتأكد فلينظر في التفسير ويعود إليه، والله أعلم.

(ز) موقف الزمخشري من أهل السنة والجماعة:

إنّ الناظر اللبيب في تفسير الكشاف ليجد أن الزمخشري قد مزج تفسيره بنصوص قاسية مليئة بالسخرية والاستهزاء بأهل السنة، وكذلك يجده لا يدع فرصة تفوته إلا ويحقرهم فيها ويقلل من قدرهم، فتارة يسميهم المجبرة، وتارة أخرى يسميهم الحشوية، حتى أنّه رماهم بالقدرية والمشبهة، أعاننا الله وإياكم من سوء الاعتقاد.

ومع هذا كله نراه أنّه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلى ناحية مخالفيه في العقيدة من أهل السنة والجماعة.

والظاهرة الأعجب في تفسيره وفي اعتقاده الزائف أنّه يخرج خصومه السنيين من دين الإسلام ويحكم عليهم بالكفر الصريح.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم..﴾[1] سائلاً:

فإن قلت: ما المراد بأولي العلم الذين عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله؟ قلت: هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد.

فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد ـ يعني في قوله: إنّ الدين عند الله الإسلام ـ قلت: فائدته أن قوله: لا إله إلا هو؛ توحيد، وقوله: قائماً بالقسط؛ تعديل، فإذا أردفه قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[2] فقد آذن أنّ الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين. وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام، وهذا بيِّن جلي كما ترى.

فمن خلال هذا التفسير يظهر الزمخشري بمظهر المتعصب القوي لاعتزاله، وكذلك يظهر بمظهر العدو الشرس لأهل السنة والجماعة؛ لذلك نجد أن تفسيره هذا الاعتزالي أثار عليه خصومه من أهل السنة، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد، وردوا بشكل حاسم على ما أورده في كشافه من استنتاجات اعتقادية من آي القرآن الكريم، وقالوا: إنّها جافة وقائمة على الرأي الطليق.

(ح) موقف أهل السنة من الزمخشري وتفسيره:

لقد تصدى أهل السنة لأقاويل الزمخشري واعتقاده، فتتبعوا زلاته المشينة التي تطاول بها على أهل الفوز والنجاح، وردوها كلها وبيّنوا ركاكة مذهبه وأبطلوه بحجج وبراهين قوية لا ينكرها إلا مشرك أو كافر، وها نحن نذكر لكم بعض الأئمة الذين أقاموا حملات على الزمخشري من أجل تفسيره الاعتزالي فمنها:

1 ـ حملة ابن القيم

فهذا هو الإمام العلامة ابن القيم، كثيراً ما يثور على الزمخشري من أجل كشافه الاعتزالي.

فنراه بعدما أورد تفسير الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه...﴾[3] يقول: فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً[4].

2 ـ حملة تاج الدين السبكي

فهذا هو الإمام العلامة تاج الدين السبكي يشن هجوماً على الزمخشري وكشافه الاعتزالي قائلاً: إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيراً، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله[5].

3 ـ حملة أبي حيان

فهذا هو الإمام العلامة أبو حيان صاحب البحر المحيط في التفسير يتعقب الزمخشري في تفسيره فيجد فيه من الزلات الكثيرة، ويصفه بالجهل والضلالة والسرقة، ويصفه بالمروق من الدين فيقول بعد نكر ما مدحه به:

ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً ... ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ... ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب في المعنى الوجيز دلالة ... بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقوّل فيها الله ما ليس قائلاً ... وكان محباً في الخطابة واقعا
ويخطئ في تركيبه لكلامه ... فليس لما قد ركبوه موافقا

(1) سورة آل عمران، الآية: 18.
(2) سورة آل عمران، الآية: 19.
(3) سورة الأعراف، الآية: 176.
(4) إعلام الموقعين: 1/202.
(5) النماذج الخيرية ص 310.

وينسب إبداء المعاني لنفسه ... ليوهم اغماراً وإن كان سارقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنّه ... يجوز إعراباً أبى أن يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة ... وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتى يديرها ... لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسره شيخ تخرق صيته ... مغارب تخزيق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يرى للكافرين مرافقا[1]

4 ـ حملة ابن المنير

فهذا هو الإمام القاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الذي خصّص جهوده للكشف عن حقيقة الكشاف، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال) ناقش فيه الزمخشري وجادله وردّ عليه أقواله الاعتزالية، فنجده يتوجه إلى الزمخشري باللوم على تفسيره لقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾[2] قائلاً: فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقاً، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقاً، فالحمد لله الذي أهّل عبده الفقير إلى التوكل عليه، لأنه اخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة.

وكثيراً نراه يمعن السخرية أيضاً من المعتزلة ويغرق في النكير على الكشاف، ويصفه بالبشاعة المنطقية، وكل هذا مقابل ما اعتمده الزمخشري في حملاته السخرية على أهل السنة، حتى إننا نجد ابن المنير يتطرف فيرمي خصومه من المعتزلة بالشرك الخفي.

وهكذا نجد أن أهل السنة والجماعة تحذر الناس من الزمخشري واعتقاده الفاسد الباطل، وكذلك تحذر الناس من تفسيره المليء بالاعتزال والاعتراض على أهل السنة والجماعة. فكن حذراً من كشافه، هذه مقولة أكثر أهل السنة.

5 ـ حملة الشيخ حيدر الهروي

فهذا هو الشيخ حيدر الهروي أحد الذين علقوا على الكشاف نجده يصف الكتاب وصفاً دقيقاً فيمدحه بما فيه من رونق البلاغة وأناقة أساليبه ثم ينكر ما فيه من الآراء الفاسدة نكراً؛ ما ضيع عليه هذا الرونق والأناقة وما أبطل صيته الرنان فقال: ولو فرض أنه لا يخلو ـ أي: الكشاف ـ عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفي أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع في الخطأ والخطل، سقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر فلا عين منه ولا أثر، ولذلك قد تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار، إلا أنّه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم في كتابه أمور أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية:

منها: أنّه كلما شرع في تفسير آية من الآي القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة... وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى... وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنّه يطعن في أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده.

ومنها: أنّه.. أورد فيه أبياتاً كثيرة، وأمثالاً غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها.

ومنها: أنّه ينكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة[3].

وأخيراً هذه هي شهادات بعض العلماء في تفسير الكشاف بما له وما عليه، ومهما يكن من شيء، فالكل مجمع على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللغوية في تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه.

(ط) الأئمة الذين كتبوا على الكشاف ولخّصوه وخرّجوا أحاديثه:

لما اشتهر الكشاف وطار في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفياض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميّز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محشى وضّح ونقّح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وانتقد، ومن مختصر لخّص وأوجز.

(أ) فمن الأئمة الذين كتبوا على الكشاف:

1 ـ الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندراني المالكي (المتوفى سنة 683هـ)، له كتاب اسمه «الانتصاف» وهو الذي لخّصْنَاه.

2 ـ الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي (المتوفى سنة 704هـ)، له كتاب سمّاه «الإنصاف» وجعله حكماً بين الكشاف والانتصاف.

(1) البحر المحيط: 7/85.

(2) سورة آل عمران، الآية: 23.

(3) كشف الظنون: 2/ 176ـ 177.

3 ـ الإمام قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (المتوفى سنة 710هـ)، له عليه حاشية في مجلدين لطيفين.

4 ـ الإمام شرف الدين الحسن بن محمد الطيبي (المتوفى سنة 743هـ)، له عليه حاشية في ست مجلدات ضخمات.

5 ـ الإمام عمر بن عبد الرحمٰن الفارسي القزويني (المتوفى سنة 745هـ)، له حاشية سمّاها «الكشف» وهي في مجلد واحد.

6 ـ الإمام فخر الدين أحمد بن حسن الجاربردي (المتوفى سنة 746هـ)، له عليه حاشية.

7 ـ الإمام عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي، المعروف بالفاضل اليمني (المتوفى سنة 750هـ)، له حاشية سمّاها «درر الأصداف في حل عقد الكشاف»، وله حاشية أخرى اسمها «تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف».

8 ـ الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام (المتوفى سنة 762هـ)، اختصر الانتصاف والإنصاف.

9 ـ الإمام قطب الدين محمد بن محمد التحتاني الرازي (المتوفى سنة 766هـ)، له عليه حاشية كلها اعتراضات، وعليه محاكمات لعبد الكريم بن عبد الجبار.

0 ـ الإمام أكمل الدين محمد بن محمود البابرتي (المتوفى سنة 786هـ)، له عليه شرح وصل به إلى تمام الزهراوين.

1 ـ الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتزاني (المتوفى سنة 792هـ)، لخّص فيها حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها، وصل فيها إلى سورة الفتح.

12 ـ الإمام يوسف بن حسن التبريزي (المتوفى سنة 804هـ)، له عليه حاشية.

13 ـ الإمام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (المتوفى سنة 805هـ)، له حاشية في ثلاث مجلدات سمّاها «الكشاف على الكشاف».

14 ـ الإمام السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة 816هـ)، له عليه حاشية.

15 ـ الإمام مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي (المتوفى سنة 817هـ)، له حاشية شرح فيها خطبة الكشاف، سمّاها «قطبة الخشاف لحل خطبة الكشاف».

16 ـ الإمام ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن الحافظ الكبير عبد الرحيم العراقي (المتوفى سنة 820هـ)، له حاشية لخّص فيها كلام ابن المنير والعلم العراقي وأبي حيان وأجوبة السمين الحلبي والسفاقسي مع زيادة تخريج أحاديثه.

17 ـ الإمام علاء الدين علي بن محمد الشاهرودي الشهير بمصنفه (المتوفى سنة 871هـ)، له عليه حاشية.

18 ـ الإمام محيي الدين محمد ابن الخطيب (المتوفى سنة 901هـ)، له على حاشية السيد حاشية.

19 ـ الإمام سيف الدين أحمد بن محمد الهروي المعروف بحفيد التفتازاني (المتوفى سنة 906هـ)، له حاشية بلغ بها إلى أواسط سورة البقرة.

20 ـ الإمام شمس الدين أحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا المفتي (المتوفى سنة 940هـ)، وقد علق على بعض مواضعه، وهو من أحسن تأليفاته.

21 ـ الإمام خير الدين خضر بن عمر العطوفي (المتوفى سنة 948هـ)، له عليه حاشية.

22 ـ الإمام أبو السعود بن محمد العمادي (المتوفى سنة 982هـ)، له حاشية على سورة الفتح سمّاها «معاقد الأطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف».

23 ـ الإمام صنع الله بن جعفر المفتي (المتوفى سنة 1021هـ)، له حاشية على أوائله، وغيرهم أيضاً ولكن اكتفينا بهذا القدر من الأئمة الذين كتبوا على الكشاف.

(ب) فمن الأئمة الذين اختصروا ولخّصوا الكشاف:

1 ـ الإمام محمد بن علي الأنصاري (المتوفى سنة 662هـ)، وقد أزال عنه الاعتزال.

2 ـ الإمام ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (المتوفى سنة 692هـ)، له تلخيص سمّاه «أنوار التنزيل»، وهو سيد المختصرات.

3 ـ الإمام قطب الدين محمد بن مسعود بن محمود بن أبي الفتح السيرافي الغالي الشقار (المتوفى سنة 698هـ)، لخّصه وسمّاه «تقريب التفسير».

4 ـ الإمام محب الدين محمد بن أحمد المدعو بمولانا زاده الحنفي (المتوفى سنة 859هـ).

5 ـ الإمام عبد الأول بن حسين الشهير بأم ولد (المتوفى سنة 950هـ)، وغيرهم كثير مكتفين بهذا العدد من الأئمة الذين لخّصوا واختصروا الكشاف.

(ج) فمن الأئمة الذين خرّجوا أحاديث الكشاف:

1 ـ الإمام المحدث جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي الحنفي (المتوفى سنة 762هـ)، وقد طبع هذا الكتاب بأربع مجلدات ضخمات.

2 ـ الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (المتوفى سنة 852هـ)، لخّص كتاب الزيلعي، واستدرك عليه ما فات الإمام الزيلعي وسمّاه «الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف»، وقد طبع هذا الكتاب في آخر «كتاب الكشاف» بمفرده، كملحق له.

(د) فمن الأئمة الذين شرحوا شواهد الكشاف:

1 ـ الإمام محمد عليان المرزوقي الشافعي من أكابر علماء الأزهر، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف».

2 ـ الإمام محب الدين أفندي، له حاشية على شاهد الكشاف سمّاها «تنزيل الآيات على الشواهد عن الأبيات».

المصادر والمراجع المعتمدة في كتابة المقدمة

علم التفسير

(أ) تعريف التفسير:

التفسير في اللغة: هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان[1]: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، أي بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفَسْر أي الإبانة والكشف، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل.

وأما في الاصطلاح: فهو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك.

تعريف التأويل:

التأويل في اللغة: مأخوذ من الأول وهو الرجوع يقال: أوّل الكلام تأويلاً وتأوّله: دَبَّرَهُ وقدّره وفسّره، والتأويل: عبارة الرؤيا. فكأنّ المؤوِّل أَرْجَعَ الكلامَ إلى ما يحمله من المعاني. وأما في الاصطلاح: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه.

وفرّق بعض العلماء بين التفسير والتأويل.

(ب) نشأة التفسير:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، وعلى أساليبهم في الكلام، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم[2]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لذلك كان الصحابة الكرام يفهمون القرآن في جملته، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه، أمّا فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائقه بحيث لا يغيب عنهم منه شيء فقد تفاوتوا في ذلك، بسبب اختلافهم في العلم بلغتهم، وبمعرفة أسباب النزول، فكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ فيما لم يفهموه فيفسّره لهم لذا فقد أُثِرَ عنه ﷺ عدد كبير من الأحاديث تتناول تفسير القرآن.

وبعد وفاة النبي ﷺ اشتهر عدد كبير من الصحابة بالتفسير، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وابن مسعود، وابن عبّاس، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

1 ـ مصادر التفسير في عهد الصحابة:

1 ـ القرآن الكريم نفسه: حيث إن آياته يفسّر بعضها بعضاً، وما أُجْمِل في موضع منه قد يبين في موضع آخر، فمن ذلك تفسير قوله تعالى في سورة المؤمن[3]: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ﴾ بأنّه العذاب الأدنى المعجّل في الدنيا، لقوله تعالى في آخر السورة، الآية: 77 ﴿فَإِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعون﴾.

2 ـ السُنَّة النبوية الشريفة: فقد فسَّر النبيُّ ﷺ كثيراً من آيات القرآن الكريم، والذي يرجع إلى كتب الحديث يجدها حافلة بأبواب التفسير المأثور عن النبي ﷺ، من ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿الصلاة الوسطى﴾ صلاة العصر».

3 ـ أقوال الصحابة: كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا لم يجدوا التفسير في القرآن، ولم يسمعوه من رسول الله ﷺ، رجعوا في ذلك إلى اجتهادهم لأنّهم عاينوا نزول القرآن، ولأنّهم كانوا من خلّص العرب، يعرفون عاداتهم والألفاظ ومعانيها، ومناحي العرب في كلامهم، ومعتمدين في ذلك على الشعر الذي هو ديوان العرب كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كان الصحابي الجليل ابن عباس صاحب النصيب الأكبر من ذلك، فقد ورد عن النبي ﷺ أنّه دعا له فقال: «اللهمّ فَقِّهْهُ في الدين، وعلِّمْهُ التأويل» ولذلك لقّب «بترجمان القرآن».

2 ـ مدرسة التفسير على عهد الصحابة:

فتح اللّهُ على المسلمين كثيراً من بلاد العالم، وتوزّع الصحابة في البلاد المفتوحة، وحملوا معهم علومهم وجلس إليهم كثير من التابعين يتتلمذون عليهم، فقامت في هذه البلاد مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون، واشتهرت من بين هذه المدارس ثلاث هي:

---

(1) اقتبسنا الكلام في هذا الفصل من كتاب «التفسير والمفسرون» للمرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي.

(2) السيوطي، الإتقان 2/88.

(3) السيوطي، الإتقان 2/189.

1 ـ **مدارس مكة المكرّمة:** أستاذها الصحابي الجليل ابن عباس، وتلاميذها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وطاوس، وعطاء...

2 ـ **مدرسة المدينة المنورة:** أستاذها الصحابي أُبَيُّ بن كعب، وتلاميذها: زيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي...

3 ـ **مدرسة العراق:** أستاذها الصحابيّ عبد الله بن مسعود، وتلاميذها: علقمة، ومسروق، والأسود، ومرّة، وعامر، والحسن، وقتادة...

وقد أضيف للتفسير في هذا العهد أقوال التابعين، وبدأ الخلاف يظهر فيه، كما بدأ يتسرب إليه الروايات الإسرائيلية بسبب رجوع بعض المفسّرين لأهل الكتابَيْن اليهود والنصارى.

3 ـ تدوين التفسير على عهد التابعين:

مع بداية القرن الثاني للهجرة، بدأ المسلمون بتدوين علومهم، بعد أن كانوا يعتمدون على الرواية في حفظها وتبليغها، وأصدر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (المتوفى سنة 101هـ) أمره لعمّاله في الآفاق بجمع حديث رسول الله ﷺ، وكان التفسير باباً من أبواب الحديث، ولم يفرد له أول الأمرَ تأليف خاص يفسّر القرآن سورة سورة من مبدئه إلى منتهاه، ثم انفصل التفسير تدريجياً عن الحديث، وبدأت تظهر المحاولات الأولى للتأليف في تفسير القرآن تمثلت بكتب «غريب القرآن» التي تناولت ألفاظه فقط ككتب الرؤاسي (المتوفى سنة 170هـ) والكسائي (المتوفى سنة 189هـ) والفراء (المتوفى سنة 207هـ)، ثم ظهرت التفاسير الأولى التي تناولت السُّور والآيات كتفسير ابن ماجه (المتوفى سنة 273هـ) وابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ)، وابن المنذر النيسابوري (المتوفى سنة 318هـ) وابن أبي حاتم (المتوفى سنة 327هـ)... وتناولت هذه التفاسير الأولى غريب الألفاظ، وإيراد ما ورد من الحديث وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير بعض الآيات.

(ج) أنواع التفاسير:

كانت المحاولات الأولى للتفسير تعتمد على المأثور من حديث رسول الله ﷺ، وما نُقِلَ عن السَّلَف، ثم تدرج التفسير بعد ذلك لتدوين العلوم العقلية إضافة للتفسير النقلي، وبدأ هذا الجانب يتضخم شيئاً فشيئاً متأثراً بالمعارف العامّة، والعلوم المتنوّعة، والآراء المتشعِّبة، والعقائد المتباينة، وامتزج كل ذلك بالتفسير وتحكّمت الاصطلاحات العلمية والعقائد المذهبية بعبارات القرآن الكريم، وظهرت آثار الثقافات والفلسفات في تفاسير القرآن، وراح كل من برع في فن من الفنون يفسّر القرآن على الفن الذي برع فيه:

1 ـ **التفاسير اللغوية:** فاللغوي، والنحوي يهتم بجانب الإعراب ووجوهه، والنحو ومسائله وفروعه وخلافياته، ويكثر من الشواهد النثرية والشعرية كما فعل الزجاج، والواحدي في «البسيط» وأبو حيّان في «البحر المحيط».

2 ـ **التفاسير العقلية:** ومنهم من عني في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، ينكر شبههم والردّ عليهم، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»...

3 ـ **التفاسير الفقهية:** وهي التي عني مؤلفوها باستنباط الأحكام الفقهية من أدلتها، وإيراد الفروع الفقهية كلٌّ وفق مذهبه مع الردّ على من خالفه من أصحاب المذاهب الأخرى كما فعل الجصاص الحنفي في «أحكام القرآن»، والقرطبي المالكي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»..

4 ـ **التفاسير التاريخية:** وهي التي عني مؤلفوها بالقصص، وأخبار الأمم السابقة، كما فعل الثعلبي والخازن..

5 ـ **تفاسير الفِرَق:** وهي التي وضعها أصحاب الفِرَق والعقائد المتباينة، محاولين تأويل كلام الله حسب مذاهبهم، كما فعل الرمّاني، والجبّائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري..

6 ـ **تفاسير المتصوّفة:** وهي التي قصد مؤلفوها نواحي الترغيب والترهيب، واستنباط الأسرار الباطنية والإشارات الرمزية، كما فعل ابن عربي، وأبو عبد الرحمن السلمي...

(د) التفسير بالمأثور:

التفسير بالمأثور ـ أو التفسير النقلي ـ هو تفسير القرآن بما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته، وبما أُثِرَ عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وقد كان هذا النوع من التفاسير أولها ظهوراً كما تدرّج خلال تطور هذا العلم من الرواية في عصر الصحابة والتابعين إلى التدوين في القرن الثاني؛ لأن الحديث كان أول ما اهتمّ العلماء بتدوينه، ثم لما انفصل التفسير عن الحديث وأفرد بتأليف خاص كان أول ما ظهر فيه صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ثم ظهرت أجزاء في التفسير كجزء أبي روق، وأجزاء محمد بن ثور عن ابن جريج، ثم ظهر التأليف الموسوعي في التفسير الذي جمع أصحابه فيه كل ما روي من التفسير المأثور كتفسير ابن جرير الطبري، وتوسع أصحابها في النقل وأكثروا منه بالأسانيد المتصلة حتى استفاض.

ثم وُجِدَ بعد ذلك أقوام دوّنوا التفسير بالمأثور بدون ذكر الأسانيد، وأكثروا من نقل الأقوال بدون التفرقة بين الصحيح وغيره، مما أفقد الثقة بها، وبخاصة عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب، حتى نُقِل عن الإمام الشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث» وهو عدد لا يكاد يُذكَر أمام ما يُروى عن ابن عباس في التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل في التفسير بالمأثور من الروايات الموضوعة والإسرائيلية، ولقد كانت كثرة المرويات أكبر عامل في صرف همّة العلماء إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح،

وترجع أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى كثرة الوضع، ودخول الإسرائيليات.

أما الوضع فقد كان مصدره أهل البِدَع والأهواء والفِرَق، والأقوام الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم يبطنون الكفر بقصد الكيد له وتضليل أهله، فوضعوا الروايات الباطلة في تفسير القرآن ليصلوا إلى أغراضهم، فكثرت الروايات، وضمَّن مؤلفو التفاسير هذه الروايات في كتبهم دون تحرٍّ منهم لصحّة أسانيدها؛ لأنّ منهجهم في التأليف كان إيراد كل ما ورد من الروايات في الآية الواحدة تاركين أمر تمحيصها لثقافة القارىء. ولقد بذل المحدّثون في هذه الفترة جهوداً جبّارة في مقاومة الوضع وتمييز الصحيح من الروايات عن غيره، ووضعوا في ذلك التصانيف، وأنشأوا علم مصطلح الحديث، ووضعوا قواعد دقيقة جداً لمعرفة الصحيح من غيره، حتى ميّزوا الصحيح من الموضوع فحفظ الله بهم دينه ﴿والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

(هـ) التفسير والإسرائيليات:

وأما الإسرائيليات: فيمكن تعريفها بأنّها الروايات المأخوذة عن اليهود والنصارى في أخبار أممهم السابقة وقصص أنبيائهم، وإن كان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره، وغلب على الجانب النصراني بسبب أغلبية اليهود في ذلك الوقت واختلاطهم مع المسلمين في بلادهم، ولقد نزل القرآن بموضوعات وردت في التوراة والإنجيل، كقصة آدم عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وقصة موسى عليه السلام مع قومه اليهود، وقصة عيسى عليه السلام وأمّه مريم، كلّ ذلك ورد في القرآن الكريم موجزاً يقتصر على ذكر العِظة والعِبْرة من قصصهم دون التعرض لتفاصيل قصصهم، وقد وجد المسلمون تفصيل هذا الإيجاز عند أهل الديانات السابقة بما لا يتعارض مع شريعتهم، فلجأوا إليهم، واقتبسوا منهم، دون تحرٍّ منهم لصحة هذه الأخبار.

وقد أخبر الله تعالى في القرآن أنّ أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم فقال: ﴿يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعِه﴾[2] وقال: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[3]. كما بيَّن النبي ﷺ لأصحابه الموقف الواجب اتّخاذه تجاه أهل الكتاب فقال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[4] ولكن المسلمين تساهلوا في الأخذ عن أهل الكتاب وهكذا دخلت الإسرائيليات في كتب التفسير، وكانت مصادر الإسرائيليات تدور حول أربعة أشخاص هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

الإسرائيليات وأثرها في التفسير بالمأثور:

قسم العلماء الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول وهو ما علم صحّته بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، وذلك كتعيين اسم الخضر عليه السلام، إذ ورد فيه حديث صحيح عند البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، أو ما كان له شاهد من الشرع يؤيّده.

والثاني: مسكوت عنه: وهو ما لم يعلم صحّته ولا كذبه، وهذا القسم تجوز حكايته للعِظة والعِبْرة، ولا نؤمن بصدقه ولا كذبه امتثالاً لأمر النبي ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...».

والثالث: مرفوض: وهو ما علم كذبه لتناقضه مع شريعتنا أو مخالفته للعقل، ولا يصح تصديقه ولا قبوله ولا روايته، وإذا رواه المفسّر في تفسيره وجب عليه بيانه.

وقد كان لهذه الإسرائيليات أثر سيئ في التفسير، إذ أدخلت فيه كثيراً من القصص الخيالي المخترع، والأخبار المكذوبة، وهذا ما دفع العلماء لمقاومتها، وإخضاعها لمعايير نقد الرواية، وموازين الشريعة لتمييز المقبول من المردود. وبسبب هذه الإسرائيليات تفاوتت الثقة في كثير من التفاسير التي وضعها كبار الأئمة.

(و) أشهر كتب التفسير بالمأثور:

اشتهر من بين هذه الكتب ثمانية، تفاوتت قيمتها عند الأمّة بين القبول والرفض، وسنذكرها مع تبيان قيمة كل واحد منها:

1 ـ جامع البيان لابن جرير الطبري (المتوفى سنة 310هـ): وهو من أقدم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسّرين بالنقل والعقل، نظراً لما فيه من الروايات والاستنباطات، وترجيح بعضها على بعض، ويقع في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد طبع هذا التفسير في دار المعرفة في بيروت، كما قام العلامة أحمد شاكر رحمه الله بتحقيق نصفه فوافته المنية قبل إتمامه.

2 ـ بحر العلوم للسمرقندي (المتوفى سنة 373هـ): صاحبه هو الإمام أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، الفقيه الحنفي المعروف بإمام الهدى، وهو تفسير لطيف مفيد لكنه ينكر الروايات مجرّدة عن أسانيدها، دون ترجيح، وقد خرّج أحاديثه قاسم بن قطلوبغا (المتوفى سنة 854هـ)، وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار بدار الكتب المصرية.

3 ـ الكشف والبيان للثعلبي ـ أو الثعالبي ـ (المتوفى سنة 427هـ): صاحبه أبو إسحاق أحمد بن

(1) سورة يوسف، الآية: 21.
(2) سورة النساء، الآية: 46.
(3) سورة البقرة، الآية: 79.
(4) حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (الحديث: 7542).

إبراهيم النيسابوري المقرىء، المفسّر، الحافظ، الواعظ، رأس التفسير والعربية. وقد ذكر الثعالبي في مقدمة تفسيره منهجه ومصادره وأسانيده إلى من يروي عنه، واكتفى بذلك عن ذكر الأسانيد أثناء الكتاب وهو كتاب حافل بالإسرائيليات دون التنبيه عليها، ويوجد منه مخطوط غير كامل في مكتبة الأزهر ينتهي عند أواخر سورة الفرقان.

4 ـ معالم التنزيل للبغوي (المتوفى سنة 516هـ): صاحبه أبو محمد الحسين بن مسعود، الفرّاء، البغوي، الفقيه الشافعي، المحدّث، وهو من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها، جامع للصحيح من الأقاويل. وقال عنه ابن تيمية في أصول التفسير: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة). وقد طبع هذا التفسير مؤخراً بدار المعرفة في بيروت في أربع مجلدات بتحقيق خالد العك ومروان سوار.

5 ـ المحرّر الوجيز لابن عطية (المتوفى سنة 546هـ): مؤلّفه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، الحافظ، القاضي، من بيت علم وأدب، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص. وقد طبع من هذا التفسير الجزء الأول في القاهرة، ولا يزال الباقي مخطوطاً، وهو يقع في عشرة مجلدات كبار يوجد منه أجزاء بدار الكتب المصرية.

6 ـ الجواهر الحسان للثعالبي (المتوفى سنة 876هـ): مؤلّفه أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف الجزائري المغربي المالكي، الإمام الحجة، العالم، الزاهد الورع. وقد اعتمد في تفسيره على تفسير ابن عطية وأبي حيّان وزاد عليهما. وهو يذكر الروايات المأثورة بدون أسانيدها. وإذا ذكر الإسرائيليات تعقّبها بالنقد والتمحيص. وقد طبع الكتاب في الجزائر في أربعة أجزاء.

7 ـ الدر المنثور للسيوطي (المتوفى سنة 911هـ): اختصر السيوطي في هذا التفسير كتاباً مسنداً ألّفه قبله هو «ترجمان القرآن» جمع فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف بأسانيدها. ثم رأى حذف أسانيدها والاقتصار على متونها فقط وذكر من خرجها، فوضع الدر المنثور، وهو حافل بالأحاديث دونما تمييز بين صحيحها وسقيمها ويقتصر من بين سائر الكتب المذكورة سابقاً على الحديث دون غيره، وقد طبع بدار المعرفة في بيروت في ست مجلدات كبار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونزله بحسب المصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتماً وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً، وفصله سوراً وسوّره آياتٍ، وميز بينهنّ بفصول وغايات، وما هي إلا صفات مبتدئ مبتدع، وسمات منشئ مخترع، فسبحان من استأثر بالأوّلية والقدم، ووسم كل شيء سواه بالحدوث عن العدم، أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان؛ دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدّى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصدّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط في المضادّة والمضارّة، وإلقائهم الشراشر على المعازة والمعارة، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمآثرة رموه بمآثر، وقد جرّد لهم الحجة أوّلاً والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده على أنّ السيف الغاضب مخراق لاعب إن لم تمض الحجة حدّه فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنّ البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأنّ الشمس قد أشرقت فلمست نور الكواكب، والصلاة على خير من أوحى إليه حبيب الله أبي القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، ذي اللواء المرفوع في بني لؤي، وذي الفرع المنيف في عبد مناف بن قصي، المثبت بالعصمة، المؤيد بالحكمة، الشادخ الغرّة، الواضح التحجيل، النبيّ الأميّ المكتوب في التوراة والإنجيل، وعلى آله الأطهار، وخلفائه من الأخيار والأصهار، وعلى جميع المهاجرين والأنصار.

اعلم أنّ متن كلّ علم وعمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، وأقدام الصنّاع فيه متقاربة أو متساوية، إن سبق العالم العالم لم يسبقه إلا بخطأ يسيرة أو تقدّم الصانع الصانع لم يتقدّمه إلا بمسافةٍ قصيرة، وإنما الذي تباينت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل، حتى انتهى الأمر إلى أمد من الوهم متباعد، وترقّى إلى أن عدّ ألف بواحد، ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت والفقر، ومن لطائف معانٍ يدق فيها مباحث الفكر، ومن غوامض أسرار، محتجبةٍ وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم، وإلا واسطتهم وخصهم، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عناة في يد التقليد لا يمنّ عليهم بجزّ نواصيهم وإطلاقهم. ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدقّ سلكها، علم التفسير الذي لا يتمّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحو وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه، لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونةً، وتعب في التنقير عنهما أزمنةً، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زماناً ورجع إليه، وردّ وردّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس درّاكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبهاً على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه، (ولقد رأيت) إخواننا في الدين

من أفاضل الفئة الناجية[1] العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آيةٍ فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة، لأنّ الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله وركاكة رجاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمي المعاني والبيان، فأمليت عليهم مسألةً في الفواتح وطائفةً من الكلام في حقائق سورة البقرة وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة وجدت في مجتازي بكل بلد من فيه مسكة من أهلها وقليل ما هم عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى متطلعين إلى إيناسه حراصاً على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفي وحرك الساكن من نشاطي، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية الأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس أدام الله مجده، وهو النكتة والشامة في بني الحسن مع كثرة محاسنهم وجموم مناقبهم أعطش الناس كبداً والهبهم حشى وأوفاهم رغبةً حتى نكر أنه كان يحدّث نفسه في مدّة غيبتي عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادّة بقطع الفيافي وطي المهامه والوفادة علينا بخوارزم ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض. فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيت به العلل، ورأيتني قد أخذت مني السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثير من الفوائد والفحص عن السرائر ووفق الله وسدّد، ففرغ منه في مقدار مدّة خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة. وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم وبركة أفيضت عليّ من بركات هذا الحرم المعظم أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه منه سبباً ينجيني ونوراً لي على الصراط يسعى بين يدي وبيميني ونعم المسؤول.

(1) هي التي سماها أهل السنة بالمعتزلة فقوله: إخواننا في الدين يقتضي أنه من المعتزلة ولذا تراه في مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة يقول بقول المعتزلة فإذا كان ظاهر الآية يوافقهم أبقاها على ظاهرها وإذا كان يخالفهم صرفها عن ظاهرها إلى معنى يوافقهم عفى الله عنه.